اختلال القوة القيادية ظاهرة متكررة ؛ لأنها حقيقة مأساة الإنسان

تحت هذا العنوان كتب حامد ربيع:

« بنى لا بد وأنك تشعر - وقد تفتحت مداركك وأضحيت قادرًا على التمييز بين الخير والشر ، وعلى تقييم الصالح وفصله عن الطالح - بشيء من الازدراء والاحتقار ، لذلك الجيل الذى يحيط بك ، ويقودك ويوجهك ويفرض عليك الطاعة والاحترام ، أرى فى كثير من الأحيان لمحات السخرية الصامتة على مخيلة طلبتى ، أبنائى وبناتى ، وهم يُعلّقون على سلوك آبائهم وأساتذتهم ومن هم فى حكم أولئك .

نعم صراع الأجيال حقيقة أزلية ، ولكن ذلك الصراع لم يمنع الاحترام والتقدير ، وخلْف الصراع توجد رابطة الاستمرارية الثابتة ، التى تتعدى الخلاف المؤقت والنسبى لتخلق قصة الإنسان والوجود .

رغم ذلك فعليك يا بنى وأنت تحكم عليهم أن تذكر أولا مدى ما لاقوا وما عانوا ، وكيف خرجوا من تلك المحنة التى عاشتها أمتنا ، وحملوا هم وحدهم وزرها ، وآثارها، ولا تتصور يا بنى أنها محنة جيل واحد ، لقد حمل ذلك الجيل الذى تنظر إليه مستنكرًا المآسى المترسبة خلال عشرة قرون على الأقل ، لا تتصور أننى أدافع عن هذا الجيل الذى أنتمى أنا أيضًا إليه ، أنا أعلم وسوف تقرأ ذلك فى صفحات هذه التأملات أن هذا الجيل هو حلقة فى سلسلة طويلة من الأجيال التى تنكرت لتعاليم آبائها الأوائل، والتى خانت الوظيفة الحضارية الخلاّقة ، التى عهدت بها العناية الإلهية لأبناء هذه المنطقة، أجيال تركت الآخرين يُشكلون منطقها وعقلها على المستوى الفردى والجماعى ، فأضحت لقمة سائغة فى يد قُوى معادية لا يمكن إلا أن تقف من رسالتنا التاريخية موقف الرفض والعداوة .

(*) مجلة " L Avant Grade Arabe " الطليعة العربية، العدد 85، فرنسا فى 24 كانون أول يناير - 1984، ص 26 وما بعدها .

كم عانيت يا بنى إذ أنظر إلى أولئك الذين من حولى فتجمع نظرتى بين الحب والإشفاق من جانب ، والاحتقار والازدراء من جانب آخر ، كم تضافرت فى الذات عوامل التمزق ؟ وهل هناك أشد على النفس من أن تحتقر شخصًا وتحبه فى آن واحد ؟ من أن تزدرى إنسانًا وتعطف عليه ؟ تسعى إليه بدافع من العاطفة ، فإن تركت المنطق بحكم لغته التى لا تعرف سوى الوضعية بجفافها ، لم تستطع إلا أن تشعر بالنفور والابتعاد ، إنها مأساة جيل كامل ، لا يستطيع أن يفهم حقيقتها إلا من عاناها وعاش جنباتها .

لا أشك يا بنى فى أنك تنظر من حولك وتسأل نفسك : أين أنا ؟ هل أعيش وسط غابة قد امتلأت بالوحوش ؟ أم أننى أنتمى إلى حديقة للحيوانات تجرى فى أنحائها كيانات ليست فقط غير عاقلة ولكن مفترسة ؟ أم أننى أشاهد مسرحية تتذبذب فصولها ؛ بين الهزل المضحك والجد المبكى ؟ ولكنك يا بنى تعيش كل ذلك فى آن واحد ، بين طبقات حاكمة قد نسيت إلا أنانيتها ، و« ديدان » استطاعت أن تتسلق لتصل إلى أقصى القمة ، ولكنها لم تعد تذكر طبيعتها منذ أن تربعت فى كراسى السلطة ، وظنت أنها قد اكتسبت خصائص القيادة ، وقدرات فكرية انقلبت إلى مجموعة من الصفاقة لدى الذين تعودوا الكذب بلا حياء ، وقد فقدوا كل وعى بمعنى وتقاليد الممارسة المهنية ، دعنى أهمس فى أذنك أن الطبقات الحاكمة رغم ذلك ليست إلا تعبيرًا عن فساد الجسد ورخاوة الإرادة وتعفن الضمير، وكل شعب لا يحكمه إلا من يستحقه ، ويعكس جميع خصائصه من ضعف وقوة . علينا أن نعترف أن تخلف المنطق القيادى ليس إلا النتيجة الطبيعية لقصور القوى الفكرية ، والمثقفة عن أداء وظيفتها ، وإذا كان الحاكم يتقن فن الكذب فليس إلا نتيجة عدم قدرة المجتمع على أن يواجه ذاته بصدق وصراحة ، وإذا كانت أمتنا ليست قادرة على أن تفهم حقيقة الموقف الذى تجتازه ، فمرد ذلك أن الضمير والوعى الجماعى لم يعد صالحًا لأن يخلق ويفرض ذلك الإطار من القيم والمثاليات الذى هو وحده الصالح لأن يساند ويحكم التدبر والتعامل السياسى .

ترى هل نستطيع أن نفهم كيف أن هناك لحظات فى تاريخ المجتمعات يتعين فيها على المفكر والفيلسوف أن يخاطب رجل الشارع ، يثير فيه عناصره النفسية الدفينة ، ويدفع من خلال قرع الضمير الجماعى لذلك الرجل العادى ، ليحيله إلى قوة خلاقة تنطلق فى عملية إيمان بالذات لتصير فيضانًا يتحكم فى مصائر الحركة ؟ أليس هذا ما فعله سقراط وانتهى بأن يقدم ذاته على مذبح الإيمان والتضحية ؟ وهل تختلف القصة فى تاريخ المجتمع الإسلامى ، ومن خلال أكثر من نموذج واحد ؟ لنتذكر ابن تيمية على سبيل المثال ؟ وهذا

عالمنا المعاصر يقدم لنا الصفحات الواحدة منها تلو الأخرى ؟ وأين « فيشت » من قصة الثورة فى القيم والأخلاقيات على الأوضاع القيادية المتعفنة ؟

أزمة قيم :

إن خصائص الكثير من الطبقات القيادية التى تسيطر على مصير الأمة العربية والتى يتعين علينا أن نتعامل معها تتمركز ، وبغض النظر عن نسبية هذه الخصائص واختلافها قوة وضعفًا ، فى مختلف أجزاء تلك الأمة ، حول متغيرات أربعة :

أولها : يدور حول طبيعة المنطق القيادى : فهو منطق متخلف ، إنه يمثل تقاليد عفا عليها الزمن ، ومن ثم لم يستطع أن يستوعب حقيقة التطورات التى تعيشها الأمة العربية ، وقد انفصل عن الطبقات المحكومة ليعيش فى أبراج عاجية ، تسودها الأنانية والتجمد وعدم وضوح الرؤية .

وقد ترتب على ذلك **المتغير الثانى** وهو يدور حول حقيقة نراها فى كل مناسبة ونشاهدها بحزن وألم دون أن نستطيع منها فكاكًا ، كيف أن هذا النوع من القيادات العربية غير قادر على فهم حقيقة الموقف الذى تعيشه أمتنا ، فهى من جانب تبالغ فى إعطاء الأشياء التافهة أهمية لا تملكها ، وهى من جانب آخر تمر أمامها الحقائق والوقائع الخطيرة الحاسمة فلا تشعر بها ولا بخطورتها ، وإن تنبهت لذلك فكل ما تفعله لا يعدو الصراخ والعويل .

إنها بعبارة أخرى ، لا تملك القدرة لا على أن تعطى كل موقف وزنه الحقيقى ، ولا على أن تتعامل مع الموقف من منطلق الفاعلية والقدرة الواعية ، والسبب فى ذلك لا يعود فقط إلى تخلف تلك القيادات ؛ بل وكذلك إلى نقص ثقافتها السياسية بالمعنى القومى والاستراتيجى .

أما **المتغير الثالث** والذى يمثل الخطورة الحقيقية فهو الكذب ، الذى تعودت هذه القيادات ممارسته بعناد وصلابة ، حتى انتهت بأن تصدق هى ذاتها تلك الأكاذيب ، يساعدها على ذلك خوف من فقدان السلطة ، أضحى تقليدًا واستعدادًا من المواطن للتملق وقد تحول إلى سلوك ثابت ، بحيث صار شرطًا أساسيًا للحصول على المنفعة التى بدورها أضحت هى وحدها محور التعامل بين الحاكم والمحكوم . إن الوصولية قد وُجدت فى كل مجتمع بشرى وازدان بها كل نظام سياسى ، ولكن القائد الحصيف ، هو الذى يعرف كيف أن لكل شىء موضعه ، البعض يعتقد أن الكذب هو تعبير عن الدهاء والقدرة على التلاعب بالموقف ، وهم يتصورون أن هذه هى المكيافيلية المثالية ، ولكن هناك فارقًا بين الخديعة فى معاملة العدو ، والكذب فى التعامل مع الموقف ، الأول يعنى أخذ الخصم على غرة . أما

الثانى فهو تعبير عن عدم الإدراك الذاتى لحقيقة الموقف .

وهذا يقودنا إلى **المتغير الرابع** الذى هو النتيجة اللازمة والمنطقية لعنصر الكذب ، حيث نرى هذه القيادات العربية فى معظمها لا تفهم . . ولا تعرف . . ولا تقبل . . فن المناقشة ، وهى لم تعد ترى فى المناقشة وسيلة للوصول إلى الكمال ، وإنما هى أسلوب من أساليب التعبير عن عدم الاحترام ، عدم تقبل المبارزة المنطقية ، ليس إلا النتيجة الطبيعية لعدم الثقة فى الذات ، وهى لا تقتصر على القيادات التقليدية ، بل لقد لمسنا نفس هذه الظاهرة فى أكثر من تطبيق واحد ؛ بصدد العالم المتخصص ، الذى وقد أُتيحت له فرصة الانتقال إلى العمل السياسى ، فإذا به وقد فقد جميع صفات الممارسة العلمية ، والتى أساسها الانفتاح الفكرى وتقبل مقارعة الحجة بالحجة ، كأساس لتنقية المنطق من الشوائب ، ويضخم من هذه الظاهرة نتيجة أخرى منطقية للعامل النفسى المتستر خلف هذه الحقيقة ، أى عدم الثقة بالذات ، فالقيادات هذه وهى ترفض المناقشة ، فإنها إذا فُرضت عليها المبارزة المنطقية تنتقل ببساطة وسهولة إلى الإسفاف والبذاءة .

اختلال القوى القيادية :

بُنَىّ لا أريد ولا تتصور أننى أسعى إلى تخفيف مسؤولية قياداتنا ، ولكن علينا أن نتذكر أن التاريخ عرف هذه النماذج فى أكثر من موقف واحد . اختلال القوى القيادية ظاهرة متكررة ؛ لأنها حقيقة المأساة التى عاشها ويعيشها الإنسان ، ولكن أصالة الشعوب تبرز عندما تعرف القوى الفكرية كيف تُعيد تصحيح المسار ، إزاء الخلل الذى يسيطر على القيادة السياسية . وإذا كانت هذه هى قصة الوجود الإنسانى فلنقف إزاء نموذجين كل منهما يحمل مذاقه الخاص :

الأول يقودنا إلى المجتمع اليونانى قبل الميلاد .

والثانى ينقلنا إلى المجتمع الألمانى فى أعقاب الثورة الفرنسية .

كل من حلّل التاريخ اليونانى لاحظ بوضوح مدى تخلف الطبقة القيادية فى مواجهة وظيفتها المقدسة ، وبينما أفلاطون وأرسطو وسقراط كل منهم بأسلوبه يندد ويهدد ويذكر ، هذه قيادات أثينا وإسبارطة تعيش فى عبادة الأصنام ، وقد جعلت ممارسة الجنس فى أقبح صورة وسيلتها للوصول وللتقرب إلى الآلهة ، وحتى عندما جاء « بركليس[1] » ليسطر صفحة رائعة فى تاريخ الشعوب ، لم تكن قصته سوى لحظة استثنائية فى تاريخ مجتمع لم يستطع أن يعد قيادته الحاكمة .

(1) أوروبا منذ أقدم العصور ، دولة اليونان ، د. وفاء محمد رفعت ، د . جمال عبد الهادى ، دار الشروق ، جدة (مطابع الشعب المصرية) .

نموذج آخر يعيد القصة ولكن فى دلالتها الإيجابية : المجتمع الجرمانى فى مواجهة الغزو الفرنسى فى بداية القرن التاسع عشر إن قصة أمراء المجتمع وقياداته ، والواحد منهم يتبارى مع الآخر فى الانحناء أمام قنصل فرنسا الغازية « نابليون بونابرت » ، لا يزال يرويها الجميع بخزى وعار[1] ، ولكن الفكر السياسى الألمانى رفض إلا أن يقف متكاتفًا متراصًا مؤمنًا بوظيفته التاريخية ، يقود ويهدى ويعلنها حربًا ضارية على كل من أصابه الخوف أو الوهن ، لم يتردد حتى أولئك الذين جعلوا من مبدأ الدفاع عن النظام القائم محور فلسفتهم ، أن يحيلوا لغة المديح إلى أداة للتنظيف والتنقية ، ولنترك جانبًا « فيشت»، ولنحاول فهم الدلالة الحقيقية لفلسفة « هيجل » ، ألم يوصف بأنه فيلسوف الدولة البروسية؟ ومع ذلك أليس هو من خلال قنابله الفكرية الموقوتة الذى قاد إلى بناء الثورة الثقافية الحقيقية ، تلك الثورة التى دفع ببراكينها وزلازلها إلى تمزيق الأوضاع القائمة ، بحيث كان لا بد وأن تقود إلى خلق العملاق الألمانى الذى لا يزال حتى اليوم يثير الرعب فى قيادات كل من واشنطن وموسكو على حد سواء ؟ وهل يمكن أن نفسر المعنى الحقيقى لبطولة « فيشت » وقصة تحديه للغازى الفرنسى ؟ هذا الفيلسوف الألمانى الذى لم يتردد فى أن يقف فى أكاديمية بروسيا المشهورة ليخاطب الوعى الجماعى ، وليذكر الطبقة القيادية بواجبها ووظيفتها دون أن يعبأ لا بالجثث المعلقة فى شوارع برلين ، ولا بأحكام الإعدام بالجملة ، التى كانت تصدر من بونابرت بمناسبة ودون مناسبة ، ولا بضخامة الجمهور الذى وقف يتحدث إليه وما يعنيه ذلك من إمكانية تسرب تفاصيل حديثه إلى الغازى ، بل خلال اثنتى عشرة محاضرة متتالية راح يهاجم الحضارة الفرنسية ، ويشرح الاستعمار البونابرتى ، ويرفض الوجود اللاتينى ، ويدعو جميع القوى الألمانية الأصيلة لأن تتكتل خلف القيادات التى آن لها أن تكون واعية لتطرح عن كاهلها تلك البربرية الجديدة .

إن قوة الشعوب ليست فقط فى أن تعرف كيف تخلق قياداتها الصالحة الواعية والقادرة على تحمل المسؤولية ، بل إن القوة الحقيقية للأمم الخلاقة وللشعوب الحية اليقظة هى فى أن

(1) وهذا ما سقطت فيه بعض قياداتنا الإعلامية . . والثقافية ، حيث نرى ونشاهد ونتأمل أجهزتنا الثقافية والإعلامية وهى تُعدّ للاحتفال بمرور مائتى عام على احتلال فرنسا لمصر ، بل ويكذب العلمانيون على أبناء الأمة بقولهم : إن الغزوة الفرنسية لمصر كانت سببًا فى حضارتها العلمية والثقافية !!(الطريق إلى ثقافتنا ، محمود شاكر) .

ولم يكتفوا بذلك بل يطالبون برفع تمثال (فرديناند ديلسبس) على مدخل القناة وهو الشخص الذى أفقر الخزانة المصرية ودفعها للإفلاس ، وكان سببًا فى الاقتراض و الاحتلال البريطانى فيما بعد . (أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ ، مصر بين الخلافة العثمانية والاحتلال الانجليزى) ، دار الوفاء .

تملك تلك الفئة المختارة القادرة على أن ترتفع عن مستوى الفرد العادى ، لتبرز كإرادة للتحدى ، مغامرة بنفسها لتصحيح مسارات الطبقة القيادية ، ولو على حساب حياتها . هنا فقط الإنسان وقد أضحى إلهًا ، والإله وقد تقمصت روحه فى ذلك الإنسان الضعيف وهو يسطر أروع قصة فكرية عرفتها الإنسانية .

ولماذا نذهب بعيدًا ؟! أليست هذه قصة تاريخنا ؟ هذا التاريخ الذى أضحى يقدمه أعداؤنا وخصومنا على أنه أحاديث ألف ليلة وليلة ، وأشعار أبى نواس عامرة بالنماذج التى تعلن ليس فقط عن إرادة التحدى ، بل وعن حقيقة ذلك المجتمع على أنه قام على محور واحد : الفئة العلمية المختارة .

إن تاريخنا أيضًا هو قصة « الأئمة الأربعة » الذين لم يتردد أى منهم فى أن يقف من السلطان (الحاكم) موقف الرقابة والمحاسبة ، ولو على حساب حياته وحريته .

إن هذا التاريخ هو أيضًا قصة ابن حنبل[1] الذى تحدى خلفاء ثلاثة ، ولم يتردد فى أن يقف وحيدًا مهابًا يرفض نظرية فكرية كاملة[1] ، وليجعل الرأى العام فى عالم لم يكن يعرف بعد ما تعنيه هذه الكلمة ، يثور على الخليفة العباسى ، ويجعله يتراجع وينحنى إجلالاً وتقديسًا .

إن ما يعنينى يا بُنَىّ هو أن تعود إلى آبائك الأوائل ، أن تقرأ صفحة التاريخ لتعلم أنك تنتمى إلى الأمة المختارة ، التى يجب أن تقود الإنسانية ، وأن توجهها .

أنت نقطة البداية فى حضارة عصر النهضة الحقيقى ، إن النهضة التى طالما سمعنا عنها، والتى تحدث أكثر من مفكر واحد يذكر فصولها ، لا تزال فى الأفق ، لم تحدث بعد .

أنت الذى سوف تخلق هذه النهضة وليس أمامك إلا أن تعود إلى آبائك الأوائل تسألهم وتسترشد منهم عن حقيقة وظيفة الأمة التى تنتمى إليها[2] . والتى اختارتها القوة

(1-1) وهى نظرية – خلق القرآن – أى أن القرآن مخلوق ، وليس كلام الله .
راجع فى ذلك كتاب « أحمد بن حنبل إمام أهل السنة » د . عبد الحليم الجندى – القاهرة – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية عام 1970 .
رجال الفكر والدعوة فى الإسلام ، أبو الحسن على الندوى ؛ البداية والنهاية ، ابن كثير ، جـ 10 ص 325 مكتبة دار المعارف بيروت ؛ الإسلام بين العلماء والحكام ، عبد العزيز البدرى .

(2) كان من اهتمامات الدكتور / حامد عبد الله ربيع قضية الوظيفة الحضاريه المنوطة بالأمة ، وكانت كتاباته حول هذا الموضوع فى كتابيْه : الإسلام والقوى الدولية، وتحقيقه لكتاب «سراج الملوك».
وقد واصل أحد تلامذته اهتمامه بهذه القضية ، وهو الدكتور حامد عبد الماجد فى أطروحته لنيل درجة الماجستير ، وهى بعنوان : « الوظيفة العقدية للدولة الإسلامية » تقديم الأستاذ / مصطفى مشهور – دار الطباعة والنشر الإسلامية ، القاهرة .

العليا لأن تقود الدعوة للعودة إلى حظيرة القيم المثالية ، لا تنظر إلى ما حولك ، إن الفارس الحقيقى لا يلقى ببصره إلى ما هو أسفل أقدامه ، وإنما يتجه ببصره إلى الأمام ، إلى المستقبل .

أنت فارس التاريخ ، ومنك وبفضلك سوف ينبت ويترعرع تطبيق جديد لحضارة آبائك الأوائل ، حضارة سوف تتسع لتفرض على كل وجود معاصر أن ينحنى إكبارًا لها .

إنّ هذا صوت التاريخ[1] .

(1) إن صوت التاريخ ما زال يصرخ ويئن من إهمال المسؤولين لسجل العلماء المخلصين ، فهذا العالم - حامد عبد الله ربيع - المتخصص الفذ له أكثر من مائتى مؤلف غير المنشور بالجرائد والمجلات ، وعندما بحثنا فى دار الكتب لم نجد له سوى :

1 - ترجمة كتاب « بول براز » الاقتصاد السياسى والتنمية .

2 - مراجعة كتاب « التخطيط الاقتصادى ونماذج التنمية الاقتصادية » .

3 - تأليف كتاب « التعاون العربى والسياسة البترولية » .